اسباب سقوط الدولة الاموية (*)

سادتي

وعدتكم يوم الخطبة الغراء التي خطبها فينا الاستاذ الخضري في ترجمة أبي مسلم الخراساني أن أقول كلمة ألمّ فيها بشيء من الاسباب التي دعت الى ضعف الدولة الاموية وتيسر قيام الدعوة العباسية وانتشارها في المملكة الاموية بواسطة أبي مسلم وأضرابه من رجال الدعوة ثم نجاحهم في الامر وقلبهم الدولة الاموية وثل عرشها وقيام الدولة العباسية مقامها

ولما همت بتتبع التاريخ من اجل هذه الغاية عذرت الاستاذ الخضري لاكتفائه بايراد سيرة أبي مسلم وما كان من انتشار الدعوة العباسية لانه لو أراد أن يطرق هذا البحث ويتبسط في مناحيه لاحتاج الى الوقوف أمامكم ساعات وانا بعده كذلك ومع هذا فلا نكون وفينا هذا البحث حقه من البيان لذا ألتمس من حضراتكم المعذرة فيما سأتلوه عليكم مختصرا في هذا الباب ولو اضمت وقتا ما في تمهيد الكلام ببحث في الخلافة لارتباط هذا البحث بسقوط بني امية وقيام دولة العباسيين

تمهيد

تعلمون ايها السادة أن السلف اختلفوا في : هل الخلافة واجبة شرعا اوعقلا ؟ والذين قالوا انها واجبة عقلا قالوا انها وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم و يفصل بينهم في التنازع والتخاصم الى آخر ماقالوه

وتعلمون ان ما وجب بالعقل وجب تحكيم العقل فيه ولما كان تعريف الخلافة

(*) خطبة لرفيق بك العظم المؤرخ المشهور القاها على اعضاء نادي دار العلوم بمصر

انها حمل الكافة على الشرع وانما تحمل الكافة على الشرع بمن تتوفر فيه شروط الكفاءة لتولي امور الامة أيا كان من المسلمين فقد ترك الشارع صلى الله عليه وسلم أمر الخلافة لرأي الامة تحكم فيه ضمائرها وعقولها دون أن ينص على شخص بعينه

ومما يدلنا على أنه ليس هناك نص ديني من قبل الشارع على تخصيص الخلافة بعلي او العباس وآلهما أو غيرهم من المسلمين ان أبا بكر لما احتج على الانصار يوم السقيفة لم يحتج عليهم بخبر عن الرسول بل بالكفاءة والاستحقاق ورضا الامة فيمن تختاره اميرا عليها حيث قال :

« يا معشر الانصار : انكم لا تذكرون فضلا الا وانتم له اهل وان العرب لا تعرف هذا الامر إلا لقريش . هم اوسط العرب دارا ونسبا . قد رضيت لكم احد هذين الرجلين » واخذ بيدي عمر بن الخطاب وابي عبيدة بن الجراح . فكثر اللغط بين الانصار حتى بادر عمر بن الخطاب وقال : ابسط يدك ابايعك . فبسط يده فبايعه بشير بن سعد من الانصار فبايعه و بايعه سائر الناس

ولو كان هناك نص على علي لما افات ابا بكر وسائر الناس ولما قال الانصار منا امير ومنكم امير وهم اول من نصر رسول الله في حياته فلا يعدلون عما امر به بعد وفاته وعلي نفسه اعترف بصحة خلافة ابي بكر ولم ينازعه عليها باسم الدين اذ خطب مرة فقال :

« لقد امر النبي ابا بكر أن يصلي بالناس و إني شاهد وما أنا بغائب ومابي مرض فرضينا لدنيانا ما رضي به النبي لديننا »

توفي ابو بكر فولي الخلافة بعهد منه عمر بن الخطاب ثم توفي عمر فصرفتها الشورى الى عثمان وعلي معروف المكانة من الدين والقرابة من رسول الله فلم يقل فريق منهم بصرفها اليه باسم الدين وكل ماقيل وكتب بعد ذلك من المغامز التي غمزت بها الشورى أو غمزت بها ولاية أبي بكر وعمر ليست بصحيحة وما جاء من اخبار الخلاف على الخلافة بين الصحابة لا يحمل على غير ما يقع عادة من النزاع بين المتنافسين على الامارة في كل امة وجيل لكن صوره الامامية بعد

بالصورة التي توافق مذاهبهم السياسية والدينية حتى تمكنوا من صبغه بصبغة الدين والقول بوجوب الامامة شرعا لعلي وآله وسوقها بعد ذلك في بنيه أو بني عمه العباس باسم الدين

علمتم أيها السادة من هذه المقدمة ان الخلافة صارت الى ابي بكر ثم الى عمر ثم الى عثمان رضي الله عنهم ولم يقم بين العرب من أجلها أدنى نزاع باسم الدين بل كان العقل هو المحكم والمصلحة رائد جمهور العقلاء من الامة بقطع النظر عما اذا كان علي (رض) حقيقا بالخلافة فانه حقيق بها بلا شك ولا ريب وانما كانت هناك ظروف وأحوال اذا وصل الينا خبر بعضها فانا نجهل بعضها الآخر بتاتا وقد راعى جمهور الصحابة تلك الظروف والاحوال مماشاة لسنة الطبيعة والعقل فقدموا عليه الثلاثة الكرام ولو كان للدين حكم باستخلاف علي لما عدلوا عنه الى العقل ومكانتهم من الدين سامية شهد لهم بها القرآن الكريم والنبي العظيم

إذاً فمن أين دخلت السياسة في الدين فجعلت الخلافة حقا شرعيا من حقوق آل البيت ؟ ومتى ظهر النزاع عليها باسم الدين وظهرت مقالة الامامية التي تلتها بدع كانت آفة المجتمع الاسلامي ومنها مسألة المهدوية التي عانى و يعاني المسلمون مضضها الى اليوم ؟ .. الجواب عن هذا يعرفه كل مطلع على التاريخ وكلكم مطلع عليه : دخلت السياسة في الدين وظهرت مقالة الامامية لما دخل الاعاجم في الاسلام وظهر هذا الدين وأهله على الامم وذلك بعد مضي صدر من خلافة عثمان

وأول من قام بهذه الدعوة عبد الله بن سبأ واخوانه من الموالي وأبناء الملل الاخرى الذين دخلوا في الاسلام، وابن سبأ هذا هو من الذين أحرقهم علي (رض) لغلوهم فيه

تلك البذرة الصغيرة التي بذرها ابن سبأ واخوانه من جمعية الدعوة العلوية انبتت ذلك النبات العظيم الذي قوي فيما بعد على ما حوله فأكل دولة الامويين في المشرق أكلا بعد أن دخلها الضعف من جهات أخرى وهذا موضوع البحث وها أنا ذا متكلم فيه

الموضوع

تولى عثمان (رض) الخلافة بانتخاب أهل الشورى وعمل فيها ست سنين لا يتم المسلمون منه شيئا وانما اضطرب أمره في السنين الست التالية من خلافته حيث اتسعت دائرة الفتح وكثر الموالي اللاجئون الى المدينة من الاطراف ودخل في الاسلام أو تحت سلطته أقوام لم يكن لهم ما للعرب يومئذ من العصبية والقوة والاخلاق الحربية العالية فخضعوا لجيوش العرب طوعا أو كرها وكان استغراقهم في الحضارة جعل فارقا عظيما بينهم وبين العرب الذين كانوا على جانب عظيم من سلامة الفطرة والاخلاق الثابتة المستقيمة فكان ذلك من الوسائل التي جعلت أولئك الاقوام يأتون العرب من جهة العقائد تارة والسياسة أخرى فألقوا بينهم أول بذرة من بذار التفريق في الدين والسياسة بواسطة الدعاة منهم كعبدالله بن سبأ المذكور وحمران بن سودان والاول لم يترك مصراً من الامصار الكبيرة كالشام ومصر والبصرة والمدينة الا دخله لاجل بث الدعوة وزرع هذه البذار الجديدة في النفوس

والارض البكر الصالحة سريعة الإنبات بالضرورة ولاسيما إن العرب محبون بطبعهم للتحزب ميالا مع العصبيات التي كانت تتنازعهم في عصر الجاهلية فتقبلوا الدعوة الى نصرة علي وانه أحق بالخلافة دينا بشيء من القبول وأخذت تتمكن من نفوس بعضهم هذه المقالة الجديدة حتى أفضت الى انقسامهم الى حزبين ينتصر أحدهما لعلي والآخر لعثمان

قامت الفتنة من ثم على الوجه الذي عرفناه في التاريخ وانتهت بقتل عثمان (رض) وقيام علي ومعاوية يتنازعان امارة المؤمنين وانقسم يومئذ هذان الحزبان الى أحزاب أخرى سياسية ودينية كانت الغلبة فيها للقسم الذي شايع معاوية باسم القوة والعصبية لا باسم الدين والشريعة لان الشريعة نفسها تحتاج في تنفيذها واستمرارها الى القوة كما تعلمون

لما تطاحن العرب من أجل النزاع على الخلافة بتلك الروح الدينية التي بثها بينهم دعاة الفتنة ورأى فريق منهم ان عاقبة هذه الحرب الآكلة ربما أتت على

العرب ودينهم وملكهم من أجل الامارة أجمعوا رأيهم على الخروج عن جماعة المتقاتلين وألفوا لأنفسهم حزبا سياسيا برآسة عبدالله بن وهب الراسبي غايته نسف الخلافة وطلابها من قريش نسفا وان يقام الامام من غير قريش على شرط أن يحكم برأيهم وعلى مايشيرون به أو ينتهجون له من طرائق العدل والا عزل ونصب غيره والافلا لزوم لامام أصلا . ومعناه أن تكون الحكومة جمهورية بالضرورة واليكم ماقاله عن هذا الحزب صاحب الملل والنحل قال :

« انهم جوزوا أن تكون الامارة في غير قريش وكل من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على مامثلوا له من العدل واجتناب الجور كان اماما ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه و إن غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله وهم أشد الناس قولا بالقياس وجوزوا أن لايكون في العالم إمام أصلا وان احتيج اليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً أو نبطيا أو قرشيا »

هذا رأيهم الذي أورده صاحب الملل والنحل ومنه تعلمون أن مبدأهم جمهوري بحت لاسيما في التشريع يظهر لنا ذلك كل الظهور من قوله : من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على مامثلوا له أي على ماسنوا وشرعوا له بالضرورة . وقوله : وكانوا أشد الناس قولا بالقياس . وكلكم يعلم ماهو القياس بالنسبة لمن يريد التوسع في الاحكام بمايدور مع الزمان والحاجة . ولذا فقد جاز لنا أن نسمي هذا الحزب أول حزب جمهوري في مباديه ومراميه ظهر في الاسلام . ولو لم يعجل باستعمال السلاح لتأييد مباديه وحمل الامة عليها بالقوة وانتظر ريثما تسأم جماعة معاوية الحرب القائمة من أجل الخلافة كما سئمتها جماعة علي لكانت مباديه هي السائدة الى ماشاء الله في الامة الامية ولانقطع النزاع على الخلافة منذ ذلك الحين

ولكن من الاسف أن ذلك الحزب لما عجل باستعمال القوة بعد موتمرهم الذي عقدوه في حروراء خارج الكوفة ودعوا من أجله بالحرورية اضطر أمير المؤمنين علي قتالهم وقاتلهم في النهروان وكانوا نحو عشرة آلاف فقتلهم جميعا الا عشرة منهم أفلتوا من القتل وتفرقوا في البلاد وأخذوا يبثون دعوتهم سراً فكان من ذلك ماذا؟

كان من ذلك ان انقلبوا الى جمعية سرية أقرت على الفتك بعلي ومعاوية وعمرو بن العاص قاتلة فتسرح البلاد منهم كما ذكر ذلك المؤرخون لتبقى امارة المؤمنين شاغرة للأمة من المتنازعين عليها من قريش وتختار الامة امبرا عليها من شاءت من عامة المسلمين أو خاصتهم كما هو من مقتضى مبادئهم التي مر ذكرها

انتدب لهذا الغرض ثلاثة منهم هم عبد الرحمن بن ملجم المرادي للفتك بعلي، وعمرو بن بكر التميمي لعمرو بن العاص، والبرك بن عبدالله الحميري لمعاوية. واتعدوا لسبع عشرة من رمضان فقتل ابن ملجم عليا ولم يتمكن الاثنان الآخران من معاوية وعمرو كما هو معروف في التاريخ

وكانت هذه الجمعية السرية ثانية جمعية تألفت في الاسلام بعد الجمعية السبئية التي تأسست في خلافة عثمان للدعوة الى علي كما تقدم في صدر البحث ومبادئهما متباينة بل متضادة كما تعلمون

بعد ذلك استصفى معاوية الخلافة لنفسه وأداها عن آل علي باستنزال الحسن (رض) عنها وان يترك منازعته عليها فتم له الامر بهذا وجمع كلمة العرب عليه واستمالهم اليه فكانت له منهم عصبية كبيرة احتمى عنها بها وضرب ضعيفها بقويها وقبض على زمام الخلافة بيد من حديد وحماها بلسان من سكر واستمال بدهائه بني هاشم والمهاجرين وابناء المهاجرين وجلة الصحابة تارة بالترغيب وتارة بالترهيب حتى ملك الستهم وقلوبهم فانفرط عقد الناس الا عن بني أمية واجتمعت كلمتهم على تأييد هذه الدولة ايما تأييد

لكن هل زالت تلك الروح التي بثها دعاة الامامية من الوجود ؟ وهل امكن لمعاوية ومن خلفه أن يقتلعوا ذلك الغرس الذي غرسه خصومهم بالامس ؟

كلا ان تلك الروح باقية وذلك الغرس كان ينمو ليثمر ويأكل منه غارسوه من غير العرب ولو بعد قرن وما القرن من أعمال الدول والامم الا كيوم مما تعدون

اغتصب الامويون الخلافة اغتصابا والغاصب خائف كما يقولون وهم اذا تدرعوا بالقوة والعصبية فخصومهم من بني هاشم متدرعون بالدين والمكانة الادبية التي لهم بين المسلمين والعواطف الدينية اذا تكونت ونمت واندفعت بأهلها تدك العروش

وتزلزل قوات الدول فاضطر الامويون بعد معاوية الى مطاردة بني هاشم والتنكر لهم وفعل يزيد فعلته الشنعاء بأبناء فاطمة فكان ذلك داعيا الى حذر بني هاشم وسكوتهم الى حين وتستر شيعتهم وعلمهم في الخفاء الى أن قامت دولة بني مروان وآلت الخلافة الى عبد الملك فتولاها والفتنة مستعرة في الاطراف: فالخوارج يريدون هو الخلافة، وشيعة المختار بن أبي عبيد الثقفي يطالبون بدم الحسين، وعبدالله بن الزبير ينازع الامويين على الخلافة، وعمر بن سعيد الاشدق يريدها لنفسه. فماذا يصنع خليفة يستقبل مثل هذه العواطف؟ وبماذا تعيش دولة قامت في بحر من الدم؟

لا جرم انها تلجأ الى أقصى ما عندها من القوة وتستعمل منتهى القسوة. والقسوة تملأ الصدور حفيظة وتلجئ الخصم الى استعمال أساليب الختل والتحيل على أخذ الخصم على غرة منه

ذلك مادعا عبد الملك الى استعمال منتهى القسوة في اخماد هذه الفتن وألجأ الخلافة الا قليلا منهم الى انتهاج منهجه في معاملة الخارجين عليهم واستعمال مثل الحجاج بن يوسف في الامصار النائية واشتداد هؤلاء العمال على الناس حتى كان ذلك من جملة الاسباب التي أوغرت على الامويين الصدور ومهدت للدعوة العباسية سبيل الانتشار في الخفاء وعجلت على دولة بني أمية بالدمار

بلغ من قسوة عبد الملك واظهاره الشدة في تهديد من يناوئه ان خطب بعد قتل الزبير عام خمس وسبعين خطبة قال فيها:

« أما بعد فلست الخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا الخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا الخليفة المأفون (يعني يزيد) الا وان من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الاموال. الا واني لا اداوي ادواء هذه الامة الا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم. فتكلفونا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم فلن تزدادوا الا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم. هذا عمرو بن سعيد قرابته قرابته وموضعه موضعه قتل برأسه هكذا فعلنا بأسيادنا هكذا. ألا وإني أعمل منكم كل شيء الا وثوبا على أمير أو نصب راية. الا وان الجلسة (أي القيد) التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد

عندي والله لا يفعل أحد فعله الا جعلتها في عنقه، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه !!! » ثم نزل

ثم ان السيوطي أوهن سند هذه الخطبة بقوله : في اسنادها الكرماني وهو متهم بالكذب ، لكن من درس أخلاق عبد الملك بن مروان لا يستبعد عليه النطق بهذه الخطبة اللهم الا الفقرة الاخيرة فربما كانت مدسوسة عليه ومن أجلها شكك السيوطي في صحة الخطبة والا فان قساوة الطبع التي عرف بها عبد الملك لا يحتاج اثباتها الى كثير امعان فان تطبعه بالقساوة اكسبه خلق الثبات والجلد حتى ما يبأ بالمصائب اذا توالت عليه

ففي رواية لابن عساكر عن ابراهيم بن عدي قال : رأيت عبد الملك بن مروان وقد أتته امور اربعة في ليلة فما تكر ولا تغير : قتل عبيد الله بن زياد ، وقتل حبيش بن دلجة بالحجاز ، وانتقاض ما كان بينه وبين ملك الروم ، وخروج عمرو بن سعيد الى دمشق ، يعني مشاقا

ولكي يتهج ابنه الوليد في الشدة منهجه ولا تأخذه هوادة في امر الملك او الخلافة اوصاه قبل وفاته بوصية قال فيها :

« ياوليد اتق الله فيمن أخلفك فيه — الى أن قال — وانظر الحجاج فاكرمه فانه هو الذي وطأ لكم المنابر وهو سيفك يا وليد ويدك على من ناوأك فلا تسمعن فيه قول احد وانت اليه احوج منه اليك ، وادع الناس اذا مت الى البيعة فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا ! »

على أن الوليد مع استفراغه منتهى اليقظة في ولايته لم يسلك في الشدة مسلك ابيه بل عدل عنها الى الفتح والاحسان الى الناس وشغل المسلمين بالفتوح والعمران فشيد المصانع والمستشفيات والمساجد الكبيرة كمسجد دمشق والمسجد الاقصى وكتب الى البلاد باصلاح الطرق وجعل لكل اعمى قائدا ولكل زمن خادما وأقام الفنادق فيما بين البلدان تسهيلا على ابناء السبيل وامر بحفر الآبار في الحجاز الى غير ذلك من الاعمال النافعة

وبالجملة فقد كان عمرانيا محبا لرقي البلاد حتى كان الناس على عهده لا يتكلمون

بغير العمران ووجّه همه الى انتقاء العمال فولى خالد بن عبد الله القسري مكة وعمر بن عبد العزيز المدينة وموسى بن نصير بلاد المغرب ففتح الاندلس كما هو معروف وكثر الفتح في زمنه ففتح قتيبة بن مسلم ما وراء النهر الى بخارى وسمرقند أي التركستان ، وتجاوزها إلى بلاد التبت ففتح عاصمتها كاشغر ، واوغل مسلمة بن عبد الملك من جهة ارمينيا في جبال القفقاس

وهكذا انتهت مدة خلافة الوليد على احسن حال رآها الامويون اذ استفحل ملكهم وعلا شأنهم وشأن دولتهم واحبهم العرب حتى اذا ولي الخلافة سليمان بن عبد الملك اراد قتيبة بن مسلم ان يخلع طاعته لاسباب لا محل لذكرها فلم يوافقه على ذلك جند خراسان ووقع بينه وبينهم خصام افضى الى قتله فخسرت الدولة قائدا من أكبر القائدين في الاسلام وساء سليمان في الناس سيرة حسنة أيضا لم تجعل للناقمين من دولته سبيلا اليها وختم أعماله بأحسن عمل له وهو عهده بالخلافة الى عمر بن عبد العزيز وكلكم يعرف من هو عمر بن عبد العزيز

الا ان سليمان غرس بيده غرس الدولة العباسية وقد سبقني الاستاذ الخضري فذكر لكم في خطبته الماضية كيفية تسمية أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذي كان الشيعة يدعون اليه وعهده بالامر بعده إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فلا لزوم للاعادة هنا

كان الامويون شديدي الحذر من آل علي كما ذكرنا وكان هؤلاء بعد نكبتهم في خلافة يزيد قليلي الجرأة على الظهور لشدة المال عليهم ومراقبتهم لحركاتهم وسكناتهم ولان الخلفاء من بني امية كانوا مع شدة حذرهم منهم يراعون مكانتهم ويحسنون اليهم فلم ينزع أحد منهم الى الخروج عليهم لضعفهم الا زيد بن علي فقد خرج في خلافة هشام فقتل في الكوفة وقُتل ابنه يحيى في خراسان أما تسمية أبي هاشم فقد كان بامر سليمان بن عبد الملك لانه خاف جانبه لما رأى فيه من النجابة والذكاء

وربما كان هناك سبب آخر لضعف آل علي من بني فاطمة وهو أن الذين بقوا منهم احياء بعد نكبتهم في كربلاء كانوا اطفالا لا يصلحون لقيادة الناس فالتف الشيعة حول محمد بن علي المعروف بابن الحنفية من غير ولد فاطمة وهكذا ساقوا

الامامة في بنيه من بعده كما ساقها غيرهم الى بني فاطمة ايضا وانتقلت من ثَمَّ الى أبي هاشم الى بني العباس

لا جرم أن سليمان بن عبد الملك جنى على دولته بقتل أبي هاشم لان آل علي كانوا لشدة ما عانوا من المراقبة والاضطهاد شديدي الحذر بطيئي التسلطي في الوثوب على الخلافة الاموية والظهور لمنازعة الامويين عليها فتلقى العهد بها آل العباس وهم بعيدون عن سوء الظن والمراقبة لم يعانوا مشاق الدعوة ولم يذوقوا طعم الاضطهاد فيخافوا الوقوع فيه . ولذا مالبث ان عهد الى محمد بن علي بالامر حتى نهضوا باعباء الدعوة بجرأة عظيمة وكان لابراهيم بعد موت اخيه محمد ما كان مع أبي مسلم بتفويض امر الزعامة اليه وقيام هذا ببث الدعوة لحسن قيام حتى استفحل امرها وظهرت على خصومها

أحس الامويون بهذا الخطر السريع فبادروا ابراهيم الامام بالقتل فنهض ابو العباس السفاح بعد قتل اخيه ابراهيم وعاجل الامويين بالوثوب عليهم قبل أن يدب الفشل في اهله وشيعته منتهزا فرصة وقوع الشقاق بين الاخوة وابناء الاعمام من آل مروان وتلظي المملكة الاموية بنار الفتن وظفر بما أراد وقضى على دولة الامويين في المشرق فذهبت كأن لم تكن بالامس

على ان ظفر العباسيين على هذا الوجه وبهذه السرعة له بواعث واسباب اخرى كاختلال نظام الدولة وغيره أرى أن ألمّ بها على قدر ما يمكنني من الاختصار

تعلمون أن الدولة تموت برجل وتحيا بآخر وان الرجال في الدول قليل والدولة الاموية لما فقدت رجالها فقدت جانبا عظيما من قوتها وأعني بالرجال الرجال المخلصين الذين يخدمون الدولة بمنتهى الصداقة بقطع النظر عما يعود الى افراد منهم من القسوة فيها ومنهم من اجل ذلك بالظلم اذ الرجال يعطيفون بصبغة الدولة ويتشكلون بشكلها والدولة الاموية لما كانت دولة مطلقة لزم أن يسير عمالها على سننها

من رجال الدولة الاموية المخلصين : موسى بن نصير ، والحجاج بن يوسف وخالد بن عبد الله القسري ، ويزيد بن المهلب ، وقتيبة بن مسلم واضرابهم ، ومن

خطأ الخلفاء الامويين انهم لم ينصفوا امثال هؤلاء الرجال فاخرجوا من أخرجوه منهم حتى اخرجوه فقتلوه كخالد بن عبدالله وقتيبة بن مسلم ويزيد بن المهلب الذين ذهبوا ضحايا سوء الظن او سوء التفاهم ، وموسى بن نصير الذي زج به في السجن في نظير فتحه الاندلس ومات اقبح ميتة فتقدت الدولة بفقد هؤلاء الرجال وامثالهم جانبا لا يقدر من قوتها واخذت تنحط من ثم هينها أما الخلاع فوته في الحقيقة مبدأ افول نجم الدولة لانه كان بدءا التي بها تغرب وعينها التي بها تبصر فانه بعد ان اخمد لهم فتنة ابن الزبير كان واليا على الكوفة والبه ولاية خراسان وكلا المكانين عش الفتنة ومنبع الدعوة الاعامية ومع هذا فقد ضبط البلاد وارهب بيطشه المنازعين للدولة والمنازعين الى الشغب . وأحسن في انتقاء العمال والقواد فامتد ملك الامويين على عهده الى كابل من بلاد الافغان شرقا والتركستان الصينية شمالا ولم يوجد بعد من يخلص من الولاة للدولة اخلاصه ويكون في مثل حزمه وعزمه لطال عمر الدولة الاموية بلا ريب

ولعل نوابغ الرجال يكثرون في مبدأ نشوء الدولة وان كانت هذه النظرية تحتاج الى تمحيص

ومما ساعد أيضا على اختلال نظام الدولة الاموية تباعد أطراف المملكة بما صار اليهم من الفتح الى عهد هشام بن عبدالملك اذ اتسعت دائرة ملكهم الى ما لم تبلغه قبلهم غير دولة الرومان

فما بين النهرين المعروف بالجزيرة وايران وقسم من الافغان والتركستان والبحث والقوقاس وارمينيا وشبه جزيرة العرب وسورية ومصر والمغرب والاندلس كل هذه الممالك دخلت في حوزتهم وأصبحت خاضعة لسلطانهم . وضبط مثل هذا الملك المترامي الاطراف مع صعوبة المسالك والمواصلات لذلك العهد متعذر جدا ولا سيما على أمة حديثة عهد في سياسة الامم . ولذا فقد كانت تكون الفتنة في طرف من أطراف المملكة بين الجنود والامراء المتنازعين على الولاية وتنتهي بقتل والٍ وقيام غيره وربما انتهت بغلبة المشاغب أو المنازع وضم البلاد الى حوزته واستقلاله

بالولاية عليها دونه وفصلها عن جسم الدولة والخليفة لا يعلم ذلك أولا تصل قدرته الى اخماد نار الفتنة في تلك البلاد النائية

مثاله ماوقع في المغرب في خلافة الوليد بن يزيد سنة سبع وعشرين ومئة اذ تنازع عبد الرحمن بن حبيب من ولد عقبة بن نافع الفهري فاتح إفريقية مع حنظلة بن صفوان والي إفريقية فكانت الغلبة للاول واستأثر بالسلطة على البلاد وبقيت إفريقية مستقلة عن الخلافة الاموية حتى قيام الدولة العباسية

ومثل هذا وقع في الاندلس وفي بعض الاطراف السحيقة ولا يخفى مافي هذا من الوهن والخطر على المملكة

ثم ان من الامور الثابتة في الاجتماع ان الدول الحربية الفاتحة لاتزال في أفق مجدها مادامت على الخشونة وما دام الراعي والرعية مترفعين عن الانغماس في الترف والاستغراق في ملاذ الحضارة . قد عرفنا هذا في كثير من الدول البائدة كدولة اليونان وخلفاء داوا والاسكندر (أي البطالسة) والرومان حتى لقد قال مونتسكيو في تاريخه أسباب صعود الرومان وهبوطهم : «ان دخول الرومانيين إلى الشام كان مبدأ ضعفهم بسبب ما كان مسلطا على أهلها وملوكها من الرخاوة والترف »

والدولة الاموية انما هلكت في نفس تلك البيئة التي هلك بها الرومان من قبل ، وبعد أن حافظت على خشونتها الاولى الى خلافة هشام بدأت في خلافة الوليد بن يزيد المعروف بالتهتك تنحط عن خشونتها التي عرفت بها واخذ الخلفاء من ثم يميلون الى الترف والراحة والاستغراق في الملاذ تبعا لاحوال البيئة التي نشأوا فيها وهذا بالضرورة كان من الاسباب التي عجلت على دولتهم يضاف اليه انقسام العرب في خراسان التي هي منبع الدعوة العلوية والعباسية الى مضرية ويمانية وتنازع رؤسائهم على الولاية في ابان استفحال الدعوة

مثاله ماوقع بين الحارث بن سريج والكرماني وبين هذا وقحطبة وبينهما وبين نصر بن سيار حتى ملت نفوس العرب هذه الحال وسئمت ممارسة الحرب ورأوا أنفسهم تباع ضحايا لقحطان وعدنان وتزهق في سبيل المتنازعين على الخلافة من قريش حتى قال قائلهم :

تولت قريش لذة العيش واقتت بما كل فج من خراسان أغبرا
فلبث قريشا اصبحوا ذات ليلة يعومون في لج من البحر اخضرا

لا جرم أن الذي بث روح الشقاق بين العرب في خرسان انما هم أهل الدعوة الهاشمية من علويين وعباسيين والذي أنجح قصد أبي مسلم في نشر الدعوة العباسية وقلب الدعوة الاموية تواطؤ سكان البلاد الاصليين على قهر الامويين وقل عصبيتهم العربية وقد عرف ابراهيم الامام منازع الفرس وعلم ان دولته تقوم بغير العرب من الناقمين منهم وان العرب شديدو العصبية للامويين لاسطباغهم بالصبغة العربية الخالصة فكتب فيما كتب الى أبي مسلم أن لا يبقي في خراسان ان استطاع فحل رجال الدعوة يضربون العرب بعضهم ببعض لان قسما كبيرا منهم ممن تقدم من الامويين كما تقدم في صدر الكلام قبل الدعوة وصار من القائمين بها العاملين على تشييد دعائمها تبدأ واعتقادا

هكذا أثمر الغرس الديني الذي غرسه قبل ذلك بقرن ابن سبأ واضرابه من الموالي الناقمين من الدولة السائدة واستحال على العرب في المشرق استبقاء السلطة خالصة لهم من دون الامم الاخرى المحكومة منهم وقد جرت سنة الوجود هذا المجرى في كثير من الامم من قبل

قال مونتسكيو: اقتضت الحكمة الالهية أن يكون للممالك حدود طبيعية تمسك بأعنة الملوك عن تجاوز هذه الحدود وتعدي بعضهم على بعض ولما تجاوز هذه الحدود الرومانيون أهلكهم البرث أي قدماء الفرس وبددوا شملهم ولما تجاوزها البرث أنفسهم اضطروا الاول أمرهم للرجوع الى أراضيهم

وأقول إن العرب أصيبوا بما أصيب به الرومان والبرث وطبائع الاجتماع تعذر أولئك الاقوام على ما فعلوه مع العرب وحسب العرب أن نشروا بينهم دين الاسلام فلا مؤاخذة ولا ملام ولا سيما أن الاسلام يرمي بطبيعته الى محو الحدود والسياسة الجنسية بين الشعوب كما ترمي الى مثل هذا مبادي جماعات السوسياليست أو الاشتراكيين أو الاجتماعيين لهذا العهد

ورب قائل يقول ان هذا الانقلاب أي انقلاب الدولة الاموية الى عباسية

لم تكن نتيجته كلها كما يريد أولئك الاقوام المغلوبون للعرب إذ دولة الامويين عربية قرشية ودولة العباسيين كذلك

الجواب عن هذا يأتي من وجهين : الوجه الاول ان أمم المشرق لذلك العهد قلما كانت تقدر قيمة الحرية الكاملة لفقدها في وجود زعماء الاجتماع الشرقي أو كما قال مونتسكيو «ان أمم آسيا لم يكن ميلهم الى الحرية كميل أمم أوربا اليها اليوم - أي لعهده - ليعلمهم على الخروج من الاسر والاستعباد وانما كان ميلهم الى تغيير الملك ولا صبر لهم على بقائه طويلا »

وسواء صحت هذه النظرية أم لم تصح فانه يجوز لنا تطبيقها على الامم التي دخلت تحت حكم العرب لذلك العهد باعتبار ان الاسلام جمع بينهم جميعا فلا فرق عند الفرس وغيرهم أن يكون الخليفة أو الملك عربيا أو غير عربي مادام الملك آتلا الى غير الدولة التي قامت منها وما دام مصير أكثر السلطة اليهم بعد قل حدة العصبية العربية التي كانت قائمة في دولة الامويين متسلطة بقوتها على كل شيء

وقد كان ما أرادوه بقيام الدولة العباسية التي لم يكن لها من العربية الا الاسم وهي مصطبغة بالصبغة الاعجمية مشتبكة مع العناصر الاخرى بالنسب والصهر مشاركة لهم بمصالح الدولة كما تعلمون

هذا الوجه الاول ، أما الوجه الثاني فانتظار النتيجة العلمية لمثل هذا الانقلاب ولو في المستقبل البعيد وتلك النتيجة هي أن اصطباغ الدولة أو الامة السائدة بصبغة اهل البلاد يحيلها مع الزمن الى عنصر هذه الصبغة والعكس بالعكس اذ من الشعوب من اصطبغوا بصبغة العرب بعد الفتح فاندمجوا فيهم ومن الشعوب من اصطبغ العرب بصبغتهم فاندمج هؤلاء فيهم وهذا ما وقع لسكان آسيا الوسطى بعد قيام الدولة العباسية ثم سقوطها وقيام غيرها من الحكومات الوطنية على انقاضها وهكذا رأينا دولة الفرس وغيرها من الدول الاسلامية دينا المختلفة جنسا قد عادت الى أصلها وهي قائمة الى الآن وستبقى قائمة عزيزة الجانب منيعة الجناب الى الابد ان شاء الله

وهكذا نرى الخلافة الاسلامية التي نالت من اجلها أو باسمها تلك الدماء العزيزة صارت الى غير العرب اليوم وفي تركة هي اعز دول الاسلام مكانا فاجلسوها

بحفظ بيضة الخلافة ولم يمنع الدين أن تكون اليها الخلافة كما لم يمنع أن تكون فيمن يقع عليه اختيار الامة ورضاها في عهد الصحابة الكرام ولو من غير بني هاشم والتاريخ يعيد نفسه

هذا ما أمكنني ايراده من اسباب انحطاط الدولة الاموية ثم انقراضها تلوته عليكم ايها السادة بوجه الاختصار لان الاستقصاء والتتبع وبسط كل الاسباب والنتائج لا تقوم به خطبة لانه تاريخ دولة باكملها

أما ما يقوله بعض المؤرخين من ظلم الدولة الاموية ويعزي اليه دمارها فمبالغ فيه وما كان منه صحيحا فهو في نظري ثانوي بالنسبة للاسباب التي ذكرتها وتكاد تكون نتائجها طبيعية وليس من دولة في الارض قائمة بالعدل المحض حتى الدول المقيدة تاهيك بالمطلقة

ومن قال إن دولة الامويين كانت ظالمة وان ظلمها هو الذي جر عليها الدمار فجاهل باحوال الاجتماع او متعصب لدولة اخرى ولو طولب بالدليل على أن الدول التي قامت دولة الامويين على انقاضها كالفرس والروم والقوط وغيرهم كانت اعدل منها لما استطاع اليه سبيلا

والحقيقة ان الخلفاء الامويين كانوا اشداء على خصومهم دون سائر الناس وكانوا في منزلة من العناية بالرعية والاهتمام بالعدل بين الناس فوق منزلة كثير من الحكومات المطلقة وحسبك ان اشدهم قسوة وهو عبد الملك بن مروان استهل وصيته لابنه الوليد حين الاحتضار بقوله : ياوليد اتق الله فيمن اخلفك فيهم ! والشواهد على مثل هذا كثيرة لا يسعها المقام وحسب تلك الدولة فضلا فتوحها العظيمة التي سودت دين العرب ولسانهم على احسن اجزاء المعمور الى اليوم وتلك الايام نداولها بين الناس

وبعد فاني لست في مقام الجرح او التعديل وانما انا باحث في التاريخ اقول ما تبادر الى فهمي وما بلغ اليه علمي من غير أن اقصد التحيز الى فئة دون اخرى او شخص دون آخر وكل ما بسطته لديكم لم ارد به غير الوجهة التاريخية فارجو كرم الصفح عما اذا كان زل لساني بخطأ معذور اذ الانسان محل الخطأ والنسيان والسلام عليكم